

الفصل الحادي عشر

علاقة المساعدة السليمة

يستخدم النقاش حالياً حول: هل نختار نظاماً ليبرالياً فردياً إلى أبعد الحدود، أم نختار نظاماً اشتراكياً مكلفاً لا تستطيع الدول الفنية تحمل نفقاته.....، ويستفيد منه أناس لا أخلاق لهم بشكل مشين. وكذلك على المستوى الفردي، فكل منا يجب أن يساعد جاره، وأن يناضل من أجل قضيته؛ لأن الإنسان كريم بفطرته، ولكن العمل التطوعي يتعرض لأزمة لا سابق لها. فالعديد من الجمعيات لم تعد تعمل بسبب نقص المتطوعين النزيهين المتفرغين، وفضائح تظهر على السطح بانتظام بخصوص اختلاس أموال الهيئات الخيرية، ولم يعد استدرار الشفقة يُجدي إلا قليلاً، وفي حالات لافتة للنظر. وهكذا نكتشف بذهول بمناسبة حدوث كارثة تسونامي أن العطايا لجمعية صيادلة دون حدود التي تبدو مهمة جداً في مثل هذه الظروف، وأنها تُسيء إلى شركات الأدوية المحلية في أندونيسية، وأن كلفة تدمير الأدوية الزائدة على الاستعمال أكبر من تزويدها للمستحقين. وهذا يظهر عبثية العون السطحي، والمساعدة في شكلها البدائي الذي يتلخص في الإعانة. وبدأ الناس الذين يُطلب منهم العطاء في العديد من القضايا يستوعبون أكثر محدودية العمل الخيري. والأمر هنا أنه ليس مبدأ المساعدة الذي يناقش، وإنما الطريقة التي تقدم

بها.

كيف يمكن مساعدة شخص دون الدخول في المثلث الجهني «جزار، ضحية، منقذ» والإجابة بسيطة: يجب عدم الخلط بين علاقة المساعدة والصدقة. فعلاقة المساعدة السليمة تشمل خمس نقاط رئيسة يسهل التعرف إليها.

يجب أن يكون الطلب شفهياً:

الضحايا هم خبراء في فن الشكوى؛ ليحرصوا الحصول على عروض حل عفوية، وبعضهم لا يطلبون أبداً خدمة مباشرة. وهذا يسمح لهم في نهاية اللعبة أن يؤكدوا للمنقذ: «قل لي بربك: هل طلبت منك أي مساعدة؟ أنت الذي...» بالمقابل يفرض عليك المنقذون الذين يغذون حبهم لأنفسهم عبر عرض خدماتهم باستمرار العون، ويستأثرون من رفضك له. ولذلك وحتى تزيل اللبس تأكد أن كرمك ليس غذاءً لأنانيتك، وأجبر المستفيدين منه على طلبه بصراحة ووضوح. «هذه هي المرة الثالثة التي تخبرني فيها أن سيارتك في المرآب، وأنت لا تدري كيف تذهب إلى العمل غداً. هل تريد أن تطلب مني شيئاً بهذا الخصوص؟»، «ماذا تريد؟»، «ماذا تتوقع مني؟».

يجب أن يكون طلب المساعدة محدداً في محتواه وزمنه:

استقبلت ابنة عمك التي وصلت إلى منطقة سكنك، وقلت لها بكرم: «لا تشغلي بالك؛ فإننا سنتدبر الأمر دائماً» وقد مرت حتى الآن ستة أشهر وهي تعيش عندك، ولا يبدو أنها مستعدة للرحيل. بل تتكلم بسرور

على إجازتك المقبلة التي تضع نفسها فيها بسذاجة. فكيف يمكن لك أن تطلبي منها تحديد تاريخ مغادرتها دون أن تسيء فهم هذا الطلب. في المرات المقبلة كوني واضحة جداً في تحديد نوع المساعدة المقدمة وقدرها. قولني منذ البداية: «هذا بالضبط ما أستطيع فعله لك، وحتى.... ثم نناقش الأمر لاحقاً بحسب الظروف». فالمساعدة يجب أن تكون دائماً محدودة زمنياً. ومن المفيد دائماً إعادة تقويم الوضع بانتظام. فإذا لم يحدث أي تطور بين تقويمين، فهذا يشير إلى أن المساعدة غير مناسبة. وهكذا يجب إعادة التفكير بشكلها وتحديد مدتها من جديد.

يجب أن تتضمن المساعدة مقابلاً لها:

كانت الجمعيات الخيرية تقدم ألعاباً للآباء المعوزين؛ حتى يتمكن أطفالهم من الحصول على هدية بمناسبة عيد الميلاد. فالآباء كانوا تعيسين جداً، ويشعرون بالهانة؛ لعدم قدرتهم على تقديم هدية الميلاد بأنفسهم. وهكذا اخترعت جمعية النجدة الشعبية «بابا نويل الأخضر»، وهي حملة هدفها جمع الألعاب، يتبعها مزاد يعاد بيع الألعاب فيه بأسعار زهيدة، وهكذا فالوالدان يفخران بشراء هدايا أطفالهم. ولذلك يجب عموماً ألا تقدم مساعدة مجانية لأحد أبداً، وليس هذا بسبب عقلية تجارية جشعة، ولكن لحفظ ماء الوجه، وحتى لا يشعر المُساعد بأن عليه ديناً. فحتى تستطيع تصفية الأمور يجب أن تكون بريء الذمة، وإن وضع الآخري في وضعية المدين هي طريقة - لجعله معتمداً على الآخريين «مع كل ما قدمته لك»- يرفع فيها أصحاب الشهامة أصواتهم عندما يحاول من هم تحت حمايتهم الاستقلال. مثلاً يمكنك طلب أجره قليلة من ابنة العم التي أويتها، أو أن تطلبي منها القيام ببعض الأعمال المنزلية....

لا تقطع أبداً أكثر من نصف الطريق:

إذا كنت تحمل من يستطيع المشي فإنك ترهق نفسك، وتجعل منه كسولاً، لأنك تسبب ضمور عضلاته. وهكذا فاللطف على المدى القريب يبدو فظاظة على المدى البعيد. ففي المساعدة المبنية على الشفقة نصل أحياناً إلى مواقف عبثية، حيث يأتي المنقذ لمساعدة طالب عون ينتظر بسلبية أن يخرج من ورطته. ولذلك فمن الضروري أن نتأكد من أن المُساعد يؤدي دوره ويسهم بجد في إنقاذ نفسه. «حسناً سوف أساعدك في كتابة سيرتك الذاتية، ولكن عليك أولاً أن تجمع كل عناصرها» أو «على فكرة، لقد جمعت كل الإعلانات التي.... وعليك أن تقوم بالاتصال هاتفياً».

يجب أن يكون هدف المساعدة هو العودة للاستقلالية:

أنتم تعرفون دون شك هذا المثل: «الذي يعطي سمكة للرجل الجائع يطعمه يوماً، والذي يعلمه كيف يصطاد يطعمه طوال الحياة». يعطي المنقذ غالباً سمكة وينتظر بسذاجة أن يقرر الذي يتلقى العون أن يمسك صنارة الصيد بنفسه. عندما يتوقف المنقذ عن تزويد متلقي المساعدة بالسمك فإنه سيطلب بحقه بشدة، وعندها يكتشف المنقذ بذهول أن ضحيته لم يفكر قط في أن يصطاد. إنه ليس الكسل، ولكنها الطبيعة البشرية. فالإنسان بغريزته يبحث عن أي شكل من أشكال التأقلم يُسهل عليه حياته: النار والعجلة والمطبعة هي أمثلة على ذلك. وكذلك فإنه إن استطاع أن يأكل سمكاً دون أن يذهب إلى الصيد، فإنه سيتعود ذلك

بسرعة. فلماذا القيام بعمل الآن إن كان شخص آخر سيقوم به لاحقاً؟
ولذلك عليكم أن تتأكدوا دائماً أن طريقة تقديم العون هدفها استقلالية
الذي يقدم إليه العون. وإليك الطريقة الأخيرة لمعرفة: هل كانت طريقة
مساعدتكم سليمة؟ عندما يجد الشخص الذي تساعدونه استقلاله،
فإن شكره يجب أن يبقى معتدلاً. فبإمكانه شكركم على إصفاكم له
وصحبتة، ولكونكم أرشدتموه إلى الحلول أو زودتموه بأدوات الحل...

ولكن يجب ألا يمدح بأي حال من الأحوال عطاءك. إنه هو الذي قام
بالعمل كله، وإنه دفع مقابل المساعدة بطريقة أو بأخرى، فإنه لا يشعر
بأنه مدين لك بشيء، ويجب أن تشعر بأن دورك كان التحريض على
التغيير، وليس صنع المعجزات، وأن تستطيع مشاهدة من تساعد يبتعد
عنك دون أن تشعر بالحنين. وأنت بالتأكيد قد ساعدت بحرارة، ولكن
انطلاقته المتوقعة كانت دائماً هدفك.

وأخيراً، فباستطاعتك أن تفتح قلبك على الكرم بكل أمان؛ لأنك
تملك الآن مفاتيح المساعدة الفاعلة، التي هي دون شك أقل تغذية لمجد
المُساعد، وأقل لذة لشعور الضحية بالطفولة، ولكنها أكثر إرضاء لكل
الأطراف على المدى البعيد.

